البيت التراثي البغدادي
تخطيطه وعمارته*

تبوأت بغداد مركزاً متميزاً في تاريخ وحضارة العرب والإسلام. عبرت عنه أقوال المؤرخين التي تصف أيام عزها وازدهارها. وتشيد بإتقان هندستها وكثافة سكانها وامتداد اقتصادها وازدهار الفكر فيها. وكثرة من أمها واستوطنها من العلماء والمفكرين، وغزارة ما أنتجوا و أبدعوه في شتي ميادين الأدب والفنون والمعارف.[١]

والفضل في عظمة بغداد وازدهار حضارتها يرجع إلى أهلها وثقتهم بذاتهم ونظرتهم الانسانيه. وهى عاصمة الخلافه العباسيه ووارثة اقدم الحضارات التي عرفها الإنسان ذات المجد الاثيل حضارة سومر وبابل واشور.

لقد نشأت العماره البغداديه في منطقة ذات خصائص عماريه وموقع متميز، فهى علي اتصال دائم بالعالم القديم، وبعد انتشار الدين الإسلامي أصبحت الآفاق واللقاءات مفتوحه مع حضارات كان لها دورها الواضح في المنطقة، فنتج من ذلك نشوء فن عمارى له مقومات حضاريه وخصائص فنيه مستحدثه استمدت وجودها الحضارى الجديد وهيأت لها الفرص الكامله للنمو والتوحيد والظهور بشكل متفوق جعل بغداد مدينه الأحلام والخيال والأساطير.[٢] قد حقق هذا الاتجاه المعمارى باستعمال المواد الانشائيه المحليه كالطين والآجر، واللبن، والجص والنورة، قد استطاع المعمار البغدادي اخراج منجزاته بمنظور فخم وابعاد توحي بالسمو[٣].

وهكذا نشأت بغداد كغيرها من مدن العراق الأوسط على ارض رسوبية يؤلف طين السهول قوام مادتها الانشائيه التي أعطت العمارة البغداديه خصوصيتها باستخدام مادة الآجر فى العماره والزخرفه والعقود والاقبيه والقباب، وفى المداخل والواجهات.

ومن ابرز الخصائص المعماريه التي تميزت بها العماره البغداديه اعتماداً على ما سجله المؤرخون والبلدانيون والرحاله العرب والأجانب، وما ورد فى كتب الأدب من نصوص تناولت بالوصف مظاهر الحياه والبيئه كالمناخ والطبيعه المحليه واثر ذلك فى الحياه اليوميه والاحوال الاجتماعيه وانعكاسها جميعاً على الحياه الفكريه عموماً وبالتالى على الصياغه العامه لشكل المدينه[٤].

---

* د. حميد محمد حسن

[١] العلى،صالح احمد:
بغداد مدينة السلام،نشاتها وتنظيم سكانها في العهود العباسيه الاولي-الجانب الغربي-مطبعة المجمع العلمي العراق-بغداد-١٩٨٥.صـ٣.

[٢] مكيه محمد:تطور فن العماره في بغداد عرض تاريخى مصور،اصدار نقابة المهندسين العراقيه-بمساعدة كولنكيان مؤسسة رمزي للطباعه-بغداد-١٩٦٩.صـ٢٠٣.

[٣] المصدر نفسه،صـ٢٠٤.

[٤] المصدر نفسه،صـ٢٠٣.

العناصر التكوينيه للبيت التراثى البغدادى

تختلف البيوت التقليدية البغدادية باختلاف حالة اصحابها المعاشيه فهناك بيوت الأغنياء التى تشغل مساحه كبيره كالحرم والديوه خانه والطولة (الاسطبل) مرابط الخيل،وقسم الخدم وغيرها.بينما متوسطين الحال فتتالف من طابقين، أما بيوت الفقراء فذات طابق واحد.

وقد حاول البناءون جعل بناء البيت ملائماً لعوامل كثيره تحدد تخطيطه وشكلها، منها المناخ وطراز الحياه الاجتماعية والعائلية والحاله الاقتصاديه للأفراد والمواد المتوفره للبناء.

ويشمل البيت التراثي البغدادي عناصر معمارية مهمة هي العناصر التكوينية للبيت التراثي البغدادي وكما مبين أدناه:

١-الساحه الوسطيه:

تتميز الدور البغداديه بخصائص انشائيه وتخطيطيه ذات طابع واحد يتمثل في توزيع المسقفات السكنيه حول الساحه الوسطيه المكشوفه او الرحبه الداخليه للدار بطابقين وذلك لمنع تسلط الجار اذا كان بيته أوطأ من بيت جاره، وعن طريقها يتم تحقيق منظور للفضاء ليلاً ونهاراً.

ولقد واكب نظام الساحه المكشوفه(الصحن)العناصر المعماريه التي واكبت الكثير من المباني التراثيه، الدينية والمدنيه والعسكريه وقد عرفت في العراق منذ ازمان بعيدة.

ان هذا النظام علي الرغم من قدمه وملاءمته للظروف المناخية والاجتماعية في العراق ومعظم أرجاء العالم العربي والإسلامي،كان العنصر الأساس عند تصميم أي مبني. وهو معالجه معمارية نابعة من صميم الفكر العربي واستجابة صريحه لمقتضيات مناخ المنطقه.والصحن الجيد هو الذي يبني علي قياسات تقلص فترة وصول اشعة الشمس اليه.

وهو فضلاً عن هذا وذاك ساحة خدمات تمارس فيه وتنجز معظم خدمات المبني، وقد اثبتت التجارب ان الصحن اكثر التصاميم ملائمه بما له من امكانيه عاليه لسد حاجات واستعمالات متباينه.ويعتبر الاساس في تصميم أي مبني.

٢-المدخل والباب:

المدخل هو موضع الدخول[٥]،وباب ما يسد المدخل ويغلق به من الخشب وغيره[٦]،وعلي هذا يكون المدخل هو الوضع او الحيز الذي يجتاز من خلاله المكان

---

[٥] ابن منظور(جمال الدين ابو الفضل محمد بن جلال).لسان العرب-دار صادر-بيروت-١٩٥٦-جـ١صـ٩٥٥

[٦] الذبيدي@محمد مرتضى الحسيني) (ت١٢٠٥هـ)
تاج العروس من جواهر القموس،المطبعه الخيريه- مصر(١٣٠٦هـ)صـ٣١٠.

الذي يحدد به،وهو مفتاح المبني وحلقة الاتصال الواصلة بين داخل المبني وخارجه وقد رافق الإنسان منذ بداية استيطانه واتخذ اشكالاً عده[٧].وبما انه المنفذ الوحيد المؤدى إلى داخل المبني فقد اختلف في شكله وسعته وموقعه واسلوب عمارته وحسب طبيعة المبني،ومن ابرز انواع المداخل:

١- المدخل المنكسر:

لهذا النوع من المداخل مواصفاته الخاصه من موقعه واسلوب بنائه،فهو يساعد علي عزل مرافق المبني سيما صحنه عن الخارج لتحقيق اغراض بيئية واجتماعيه، وقد رافق العماره العراقيه عموماً والبغداديه خصوصاً منذ ازمان بعيده، وكان من العناصر المميزة لها،وقد استخدم بكثره في البيوت البغداديه لأهميته الاجتماعية،الا وهي المحافظه على حرمة البيت ومنع العابر الغريب من التطفل علي ما يجرى داخل الصحن،كما أن من في داخل البيت لا يستطيع رؤية العابرين.

وان الداخل قبل وصوله الصحن لابد من أن يغير اتجاهه بزاوية قائمه لمرة علي الأقل،وبذلك لوقوع المدخل الخارجى في احدي جهتي المبني، وهو بذلك يستغرق وقتاً حتي يصل الي الصحن،هذا فضلاً عن أهميته في المحافظة علي نظافة المبني وذلك بمنع تيارات الغبار من التأثير اذا ما حدثت مشاكل أو فتن داخليه أو خارجية[٨].

٢- المدخل الذي يتعامد مع الصحن ويؤدى إليه مباشرة

نلاحظ وجود هذا النوع في العديد من المباني البغدادية وبدرجات متفاوته في البيوت والخانات والمساجد والجوامع والمدارس ودوائر الدولة.

هذا فضلاً عن وجود انواع اخري من المداخل منها ما هو بمستوي الجدار، ومنها الغائر والبارز، اهتم بها البغداديون فزينوها بأجمل الزخارف النباتيه والهندسيه والمقرنصات، وجملوها بالعقود، المقصوص منها والمدبب والنصف دائري.

لأنها وجه البيت من الخارج، وكان يقصد من هذه الحلية الزخرفية جذب انتباه الزائر واثارة اعجابة.

كانت تسد فتحات مداخل البيوت بأبواب خشبيه. الأقدم منها كان ذو مصراع واحد مزين بمسامير حديد كبيرة محدبة مرتبة بشكل هندسي، يتم غلقها بواسطة مغلاق خشبي ثم استخدم القفل الحديدي بعد دخول القوات البريطانيه للعراق.

أما النوع الثاني فيتالف من مصراعين زين كل مصراع بزخارف نباتية ذات اشكال متعددة تجلب انتباه الناظر اليها. اضافه الي الزخارف الاجريه التي تزين الواجهه علي جانبي الباب واعلاه.

---

[٧] الدارجي،حميد محمد حسن:
البيت العراقي في العصر العثماني،رساله ماجستير غير مطبوعه-بغداد-١٩٨٢

[٨] شافعي فريد محمود:
العماره العربيه في مصر الاسلاميه،الهيئه المصريه العامه للتاليف والنشر،مطبعة الثقافه-القاهره-م١-١٩٧٠.صـ٤٣٥

الإيـــــوان:

يقول بن المنظور انه شبه ازج غير مسدود الوجه[٩]. ويقول آخرون: انـــه المكـــان المتسع من البيت يحيط به ثلاث حيطان [١٠]. ويعرف معمارياً بأنه البيت المـــؤرج أي المرتفع البناء غير مسدود الوجه، أي انه قاعه مسقوفه بقبوة مفتوح مقدمها علي بهو او ساحة بعقد نصف دائري او مدبب او منفوخ او منبطح او مقصوص مغلـــق مـــؤخره بجدار[١١].

واستناداً لما سبق ذكره فيه من العناصر العماريه التي شـــهدتها العمـــاره العربيـــه الاسلاميه بشكل عام والبغداديه بشكل خاص.

وبما ان الايوان حجره كبيره واسعه ذات واجهه مفتوحه علـــي الصـــحن وســـقف مرتفع فقد كان المكان الرسمي الذى يستخدم فـــي المقـــابلات و الاجتماعـــات وعقـــد المجالس وانجاز كثير من الاعمال اليومية.

اما اصله فقد اختلفت اراء الباحثين في اصل اشتقاقه، فمنهم من قال انـــه تطـــور بالبناء لاشكال الخيمه المفتوحه التي يستخدمها العربي في وادى الرافـــدين، او كـــان تجسيماً لأكواخ القصب التي كان يستخدمونها في العراق[١٢]. والتي ما زالت مستخدمه في العراق حتي الوقت الحاضر.

من هذا يبدو ان الإيوان كان معروفاً منذ ازمان بعيدة حيث كشفت التنقيبات الاثريه نماذج كثيرة من القصور والبيوت. ومن اكثر الأمثلة وضوحاً او اوين مدينة الحضـــر العربية في القرنين الأول والثاني الميلاديين، ويمكننا اعتبار معبد الشمس اقدم ايـــوان كبير عـــرف فـــي العـــراق قـــديماً وحـــديثاً وقـــد بنـــي بالحجـــارة المهندمـــه[١٣]. التي بنيت فيما بعد في العصر الاسلامي،كما ان اكثر البيـــوت المشـــيدة فـــي الفتـــره العثمانيه كانت ذات واجهات داخليه يبرز فيها هذا العنصر العماري.

الســـرداب:

يمثل السرداب أحد العناصر العماريه المهمة في العماره البغدادية، ويكاد لا يخلـــو أي بيت منه. يختلف في عمقه من مكان الي آخر، فالأماكن القريبة من النهـــر يكـــون مستوى المياه قريب من مستوى الأرض فتكون قليلة العمق ويسمي هذا النوع(سرداب نصفي) نيم سرداب.

ويكون معدل عمقه من(١-١,٥٠م) معقود سقفه في الغالب بأقواس مدببة تتوسطها عقادة اتخذت شكل العقد. وفي البعض منها يتوسط هذه العقاد قباب منخفضـــه زينـــت

---

[٩] ابن منظور،المصدر السابق-م١٣-صـــ٤٠.

[١٠] لويس معلوف،المنجد في اللغه والأداب والعلوم-المطبعة الكاثولكيه-بيروت-١٩٦٦-صـــ٢٧.

[١١] احمد فكرى:مساجد القاهره ومدارسها-ج١-دار المعارف بمصر-١٩٦٥.صـــ١٩٤.

[١٢] pope:A survez of persian Art; Vol:1:p:au9:

[١٣] مصطفي جواد:الايوان والكنيسه،مجلة سومر،المجلد٢٥السنة ١٩٦٦،ص١٩٤.

بزخارف نباتيه وهندسيه يتوسطها قضيب حديد كانت تعلق بـه المروحـه السـقفيه، وبعض الحاجيات كما هو الحال في سرداب بيت الاسـترابادي وبيـت النـواب فـي الكاظميه، وبيت الشهربلي في الرصافه محلة صبابيغ الال وبيت الملا حمادى في محلة المربعة.

وتمتاز السراديب بمدخلها المتميزة. حيث كان يعلو المدخل زخرفة متعرجة علـي هيئه المروحه اليدوية.

والنوع الثاني يمتاز بعمقه وقد استخدم لأغراض عدة منها ما كان مخصصاً للنـوم في فصل الصيف لانه ابرد من السرداب النصفي. وبعضه كـان مخصصـاً لحفـظ المئونه.

وهناك نوع اخر يمتاز بعمقه وارتفاع سقفه الذي يصل إلى مستوي سقف الطـابق الأرضي. ويمتاز بوجود شرفه خشبيه تشغل جانب او جانبين من السرداب. ارضيتها بمستوى ارضية الفناء تسمي(تخت بوش). كانت مخصصه لمنام الأشخاص الـذين لا يتحملون الجو البارد في السرداب.

وتتصف هذه السراديب بجدرانها الثخينه وانخفاض ارضيتها عن مستوي ارضـية الدار بمعدل يصل إلى ثلاثة امتار مما يساعد علي حماية ساكنيه من الحرارة اللاهبـة في فصل الصيف.

اما التهويه فتكون عن طريق فتحات صغيره جانبيه بمستوي ارضية الفناء او مـن الأبواب المؤديه اليه والشبابيك. الا ان التهويه الرئيسية تتم عن طريق مجارى هوائيه داخل الجدران تبدا من ارضية السرداب وتنتهي بفتحات عند السطح اعلـي السـتارة تتوج فتحتها عقود مدببه او دائرية او مفصصه واحياناً مدببه، مواجهه لهبوب الريـاح الشمالية الغربية.

وترتبط بعض السراديب عند نهاية الملاقف الهوائيه في ارضية السـرداب بحفـرة مربعه ذات ارضيه رطبه يصطلح علي تسميتها(الزنبور).

يتصل هذا الزنبور في بعض السراديب بمجارى هوائيه تحت التبليط تتخـذ فيهـا فتحات يخرج منها الهواء البارد بعد نزوله من السطح ومروره بالزنبور. وتسمي هذه الفتحات (العيون).

ولم يغفل شاعرنا الملا عبود الكرخي ذكر الزنبور فـي قصـيدته(قدسـية شـهر رمضان) حيث يقول:

حفرة هل يسموها الخلك زنبور
ام سرداب في قعره شبه زاغور
وعلي الزنبور شباك بخشب محفور
جرار وتنك توضع فيه والفنجان.[١٤]

[١٤] الحجيه،عزيز جاسم:

ومن الخصائص الأخرى للسرداب هى رصف الأرضيات بالآجر المربع بابعاد تتراوح بين(٢٥×٢٥×٦سم)،(٣٠×٣٠×٧سم)حيث كانت ترش بالماء، وهذا مما يؤدى الي احتفاظها البروده والرطوبه. وقد استمر هذا التقليد في تبليط الأرضيات الي وقت قريب جداً.

الشناشيل:

وهي النتوءات والبروزات التي تظهر في الطابق الأول فقط لغرض تصحيح شكل الطابق الأرضي غير المتجانس ذي زوايا قائمه وبالتالي تصحيح غرف الطابق نفسه الي غرف ذات اضلاع متوازيه ومتعامده، وهذا ما جعل البروزات والنتوءات ذات اشكال غريبه مثل اسنان المنشار.

ومهمه الشناشيل هذه هي حفظ الطابق الأرضي من أشعة الشمس الحاره في فصل الصيف والأمطار في فصل الشتاء.

وبما ان الشناشيل تتألف من سلسله من الشبابيك الخشبيه المتحركه المثبته الواحد جنب الآخر، يختلف عددها حسب طول الواجهة المطله على الزقاق او الشارع، فبناؤها يهدف الي امرين: الأول إنشائي وهو النقل المسلط علي الجدران في الطابق الأرضي، والثاني جمالي، لهذا نرى ان التعاون وثيق الصله بين البناء والنجار من اجل انجاز هذا العمل المعمارى الجميل. فنرى تعدد الشبابيك وتنوعها فهي ذات أشكال وأنواع عده أبرزها النوع المنزلق عمودياً حيث يتم فتحها عن طريق رفعها وغلقها عن طريق خفضها، وقد استخدمت فيها الزخارف النباتيه والهندسيه والزجاج الملون والشفاف لمنع سكان البيوت المتقابلة والماره من التعرف الي الشخص الناظر او الجالس بالقرب منها وفي الغالب تكون الشناشيل بارزه الي الخارج بمعدل(٥٠-٧٠سم) محموله علي روافع خشبيه تسمي(كوابيل) او(جرصونات) وهي ذات نهايات متدرجة مزينه بمسامير حديديه محدبة كبيرة الحجم علي نصف كرة صغيرة، مزين سطحها بزخارف علي هيئة خطوط وفي بعض الأحيان أشكال نباتية وهندسية. منفذة علي شكل حزوز، والبعض الآخر محمول علي عقاده من الحديد والآجر.

ويتقدم بعض شبابيك الشناشيل بروزات قسم منها علي هيئة نصف اسطوانة او علي هيئة قفص مستطيل الشكل او شكل انية قوام مادتها قضبان حديد مدورة او علي شكل الواح مستطيلة، تتوسط قاعدة البعض منها حلقة دائرية كانت المكان المخصص لوضع انية ماء الشرب الفخارية فيها التي تسمي في العراق(شربة) لهذا سميت مشربية علي عكس مصر وبعض الاقطار العربية التي كانت التسمية علي جميع الواجهة.

والشناشيل استناداً الي شكلها وموقعها ومادة إنشائها أطلق عليها البناءون عدة أسماء وكما مبين ادناه:

معالم بغدادية اختفت في البناء الحديث، مجلة التراث الشعبي، العدد السادس، السنه السادسه، دار الحرية للطباعه، بغداد-١٩٧٥،ص١٢٣.

١-الشناشيل المقبط.
٢-الشناشيل ابو البالكون.
٣-الشناشيل ابو الشمسية.
٤-الشناشيل المعرج.
٥-الشناشيل ابو الطيقان.
٦-الشناشيل المخلط.

وفي النوع الأخير يستعمل الطابوق مع الخشب في واجهات البيوت التراثية وفي كافة أنحاء القطر.

وفي بعض البيوت تبرز الي جنب الشناشيل الئيسية، ومن منتصف ارتفاع الجدران شناشيل صغيرة في جانب واحد من البيت او في الجانبين، وهي علي صغرها تحمل نفس المواصفات والتفاصيل العمارية والفنية، وهي تشكل واجهة لغرف نصفية تسمي(الغرف المعلقة) (الكفشكان) التي اعتبر احدي العناصر المميزة للبيت البغدادي.

الظلة(الطارمة)

من النقاط الجوهرية في تصميم البيت البغدادي التي لا يخلو منها أي بيت، وهي الإيوان المصغر للدار فلاحظ وجوده في الطابقين، الأرضي والأول، والأرضية تستعمل للقيلوله صيفاً في حالة عدم وجود السرداب، كما تستعمل ايضاً لتناول وجبات الطعام وشرب الشاى، هذا فضلاً عن ممارسة الكثير من الأعمال البيتية فيها.

اما فائدتها في العمارة البغدادية وبصورة خاصة في البيوت فهي تساعد علي الحركة داخل المبني. وتشكل حماية الواجهات المطلة علي الفناء من الشمس المحرقة صيفاً والأمطار شتاءاً. ويكون سقف الطارمة في الغالب من الخشب المزين بألواح خشبية رفيعة(ترايش) او تشكيلة من الزخارف الهندسية.

وتتقدم السقف في مقدمته اعمدة خشبية في الغالب مثمنة يعلوها تاج خشبي مزين بالمقرنصات. وهذا مما يزيد من جمالية الواجهة الداخلية اضافة الي العناصر العمارية والزخرفيه الأخرى التي تعطي المباني البغدادية خصوصيتها وتزيد من جمالها.

الاعمدة الخشبية

من المفردات العمارية الشائعة في العمارة التراثية بكافة تفصيلها الأعمدة الخشبية التي وظفت في معظم المباني التراثية وبخاصة البغدادية منها أي مبني لا يخلو من وجود نموذج او اكثر في البيوت والخانات والمقاهي والحمامات وقد استخدمت في أماكن متعددة من المبني وفي الطابقين. اتخذ العمود في القالب الشكل المثمن من قطعة واحده يعلوه تاج مزين بزخارف ذات أشكال وقياسات ثابتة استطاع النجار بمهارته ان يكون منها أشكال جميلة أبرزها المقرنصات بكافة اشكالها.

تتوزع هذه الاعمده في أماكن متعددة من المبني، نراها تتقدم الطارمات والاواوين في البيوت والخانات والمقاهي والحمامات.

وبالإضافة الي استخدام الأعمدة ذات التيجان الجميله، وبيوت الأغنياء والموسرين غنيه بها. تعتبر اشكالها آيه في الجمال والدقه والفخامه، اما بيوت العامة فقد استخدمت فيها انواع بسيطة بعضها بدون تيجان حيث كان الجسر الذي يحمل السقف يرتكز عليها مباشراً، وفي المناطق الريفيه والقريبة منها استخدمت جذوع النخيل كأعمدة في حالتها الطبيعية او بعد تهذيبها وتشذيبها.

وبعد الحرب العالمية الأولى استخدمت انواعاً كثيرة من الأعمدة الرخامية ذات اشكال وتيجان مختلفة، والأعمدة الحديدية التي تتناسب وطبيعة المبني.

ولكن رغم هذا ظلت العمارة البغدادية محافظة علي أصالتها رغم التأثيرات الأجنبية. والقائم منها خير دليل علي ذلك.

الاراسي(الواجهات الخشبية المزججة)

وهي غرفة كبيرة تقع في جانب من البيت ذات ثلاث جدران ويستعاض عن الجدار الرابع بواجهة من الشبابيك المزججة تسمي(جامخانة) تطل علي الفناء، شبابيكها محلاه بخشب محفور ومنقوش بزخارف هندسية ونباتية مزججة بزجاج ملون وشفاف يضفي علي هذه الغرفة جمالاً اكثر.

وفي العادة كانت تفرش هذه الغرفة بأحسن ما يتيسر لدي العائلة من أدوات وفرش نظيفة ومرتبة دائماً لاستقبال الضيوف في الطابق الأرضي.

لقد اندثر هذا العنصر العماري الجميل في البيوت المشيدة حديثاً بعد ان تحولت الساحة الوسطية المكشوفة الي غرفة مغلقة تسمي محلياً(هول)، وبهذا فقدت العمارة التراثية البغدادية عنصراً مهماً من عناصرها العمارية والفنية.

استخدم الخشب في العمارة البغدادية:

يتغلب البغداديون علي مشاكل الثقل في الكتل البنائية باستخدام المواد الخفية في بناء الطابق الأول بالخشب في التسقيف وبناء الواجهات المطلة علي الزقاق والشارع والساحة الوسطية.

ويلاحظ في العمارة البغدادية ارتفاع سقف غرف الطابق الاول، بمعدل (٤متر) تقريباً، وهذا الارتفاع يحقق وجود طابق وسطي ارضيته في الغالب من الخشب، وواجهته المطلة علي الزقاق او الطارمة او الفناء تشبة الشناشيل من حيث تركيبها ووظيفتها وتستعمل هذه الغرف كمخازن للأثاث الزائد او لاقامة الخدم، لأنها تبني في أماكن معزولة عن حركة البيت. هي في الغالب تشغل إحدى زوايا البيت. وفي الغالب توجد اكثر من غرفة من هذا النوع.

ومن مميزات العمارة البغدادية الإكثار من الدخلات(الروازين) داخل الفضاءات وذلك لتخفيف الثقل المسلط علي الجدران. وتستخدم الخزانات الخشبية والرفوف في الدخلات بشكل يتناسب والتصميم الداخلي للغرف.

الغرف المعلقة في البيت التراثي:(الكفشكان)

من دراسة البيت البغدادي عبر العصور التاريخية وبخاصة في الفترة العثمانية تجسدت في البيوت التراثية عناصر عمارية ذات مواصفات خاصة تتناسب وطبيعة الفترة الزمنية التي ظهرت فيها، علي الرغم من محافظة البيت علي تخطيطه وعناصره العمارية والفنية حيث ان البيت لم يتغير في جوهره، وان ما حصل من تغير وتحوير علي طراز البيت التراثي كان بتأثير العوامل والظواهر التي يكون للمجتمع دور فيها وبمعني آخر انه هو خالقها، مثل العامل الاقتصادي والمستوي الثقافي والمظهر الديموغرافي، تبعاً لمستوي نهوض وركود هذه العوامل وانسجاماً مع حاجات المجتمع بشكل عام، والعائلة بشكل خاص وهكذا نجد ان انماط البيوت التراثية قد تفاوتت مع تباين المستوي الثقافي والاقتصادي لاصحابها.

فكان لهذين العاملين آثرهما في طراز البيت ونوعية بنائة والمواد الإنشائية المستخدمة.

فهناك من بني بنياناً صغيراً لا يحوي من الغرف و الحجر إلا القليل لإيواء افراد العائلة، بينما هناك بيوت كبيرة وواسعة تشمل العديد من المرافق الإنشائية، لكل مرفق وظيفته الخاصه، وقد استخدم في إنشائها افضل المواد الإنشائية المحلية منها والمستوردة، ومثل هذه البيوت كان لها أوفى نصيب من مقاومة عوادي الزمن والصمود أطول أمام تأثيرات الظواهر الطبيعية والظروف المناخية، وكذلك تخريب الانسان لها. وهي علي نقيض بيوت عامة الناس التي كانت اكثر تعرضاً للانهيار والاندثار بسبب ضعف ورداءة المواد الإنشائية بسبب قلة الإمكانيات الاقتصادية. ولهذا لم تصلنا نماذج منها.

ان العمارة في أي بلد تمتلك خصوصية متميزه، وهذه الخصوصية هي نتيجة للظروف المختلفة للمنطقة التي تطورت فيها، فاختلاف المظاهر الطبيعية او حتي التقاليد ذات تأثير مباشر علي الخصوصيات، هذا فضلاً عن نمو الحركة التجارية حيث نشأت في مدينة بغداد والمدن الأخرى طبقة من التجار والأثرياء تبوأت منزلة عالية في سلم الحياة الاقتصادية، وقد ذكر لنا المؤرخون انباء ترفها وبذخها واستمتاعها بالحياة وهكذا اصبحت بيوت وقصور ابناء هذه الطبقة تمثل اعلي مستويات الفن العماري الذي توصل اليه ذهن الفنان في العهود السابقة.

ان ترف هذه الطبقة وتنافسها في تشييد القصور والبيوت الضخمة وزخرفتها بادق واجمل الزخارف، حملهم علي جلب مواد إنشائية ذات مقاومة عالية ونوعيات نادرة وثمينة، مثل الرخام والأخشاب والأحجار الملونة والزجاج الملون والشفاف.

ومن أهم العوامل التي اثرت علي تصميم البيت التراثي البغدادي وعمارته فهي العوامل المناخية، فنظراً لقلة سقوط الأمطار وبصورة خاصة في الأقسام الوسطي والجنوبية، فقد اقيمت سقوف افقية مستوية، كما ان شدة الحرارة أثناء الصيف الطويل

اضطر المعمار الي إنشاء السراديب. كما للفناء الداخلي دور مهم في تنظيم الحرارة وتوزيعها علي المرافق المحيطة به.

والشناشيل من الإبداعات العمارية التي استنبطها المعمار لاسباب مناخية. وان ارتفاع سقف الطابق العلوي الذي يصل في معظم الأحيان إلى اكثر من اربعة امتار، من ابعاد اشعة الشمس عن الفناء.

والاستفادة من هذا الارتفاع لعمل غرف صغيرة معلقة بارتفاع مناسب يبدا من منتصف ارتفاع الجدران، وارضيتها تتألف من ألواح خشبية سميكة، وهذه الغرف او تسمي(كفشكان) او (كبشكان).

وهذه الغرف تمثل إحدى المعالجات العمارية الصرفة التي توصل المعمار الي ابرازها في عمارة البيت البغدادي، وصورة خاصة المشيدة في الفترة العثمانية المتأخرة.

اما الوظائف الرئيسية لهذا الغرف فيمكن إجمالها وكما مبين ادناه:

١. اتخذها مخزناً للأثاث الفائضة عن الحاجة الاعتيادية لاهل البيت.
٢. اتخذها مكاناً لنوم الخدم او الأطفال.
٣. اتخذها مكاناً بعض أفراد الأسرة الذين يطلبون الهدوء والعزلة.
٤. اتخذها كشرفة مخفية ومستورة تجلس فيها النساء لمشاهدة المهرجانات ومواكب الأفراح والأحزان التي تمر في الطريق العام في المناسبات دون ان يراهن احد من الماره. لان التركيبات الخاصة بشبابيك هذه الغرف المطلة علي الطريق مصممة لحجب الرؤيا من الخارج للجالسين في هذه الغرف.

ولعل هذا العنصر العماري اتخذ في البيوت للأسباب السالفه الذكر.

لهذا نري ذيادة الاهتمام بمثل هذه الغرف وتخصيص أماكن معينة لها عند بناء أي بيت وبصورة خاصة الكبيرة، اذا علمنا ان عدد الغرف في البيت البغدادي محدودة وليس هناك تخصص، وهذه احد الأسباب الرئيسية التي دعت أصحاب البيوت والمعماريين الي الإكثار من اقامة مثل هذه الغرف للاستفادة منها في سد النقص الحاصل في الغرف وبخاصة في الأسر الكبيرة التي تصل في بعض البيوت الي اكثر من اربعة منها،(بيت السيد محمود الاسترابادي، وبيت النواب في الكاظمية، وبيت الشربلي في الرصافة محلة صبابيغ الال).

ترتسم في الزوايا وتشغل بعض الجوانب وتطل علي الاروقة والممرات. ولم يقتصر وجودها علي بغداد، بل نراها ممثلة في عدد من البيوت التراثية في المحافظات الوسطي والجنوبية لا تقل اهميتها عن مدينة بغداد.

ولهذه الغرف في معظم البيوت التراثيه واجهة خشبية مزججة متممة لشناشيل البيت.

وتطل علي الفناء ايضاً بواجهة خشبية مزججة مماثلة للواجهة التي تطل علي الزقاق الا انها بمستوي الجدار.

والصعود الي هذه الغرف يتم عن طريق سلالم فرعية عن طريق السلم الرئيسي في البيت او عن طريق سلالم خاصة تؤدي اليها مباشرة وهي تشبة في بنائها وتركيبها السلالم الرئيسية الا انها اصغر. وهي في الغالب من النوع الثابت المبني بالطابوق والجص. وهناك نوع اخر متحرك. وبعض السلالم يقع مدخلها في احدي الغرف، حيث يوجد باب خشب صغير يؤدي الي السلم الذي يقع في وسط الجدار، وعلي ما يبدو ان هذا النوع اشبه بالمداخل السرية التي يلجا اليها اهل البيت وقت الاضطرابات والفتن، وهي كثيرة في الفترة العثمانية وبداية الاحتلال البريطاني للعراق.
والناظر الي مثل هذه المداخل يعتقد انها خزانة او ماشاكل ذلك.

ونتيجة لاهتمام المعمار العراقي بصورة عامة والبغدادي بشكل خاص فقد ركز جهوده وتعاون مع النجار من اجل إضفاء الطابع الجمالي علية وابرازه بالشكل الذي يتناسب وتخطيط البيت ومكانة صاحبة الاجتماعية وقدرته الاقتصادية.
ولدينا من الأمثلة الشيء الكثيرة منها موزعة في محلات بغداد التراثية، وهي تمتاز بواجهات جميلة في منظرها ودقيقة في صناعتها. وقد استخدمت اغلي واحسن أنواع الأخشاب في عملها.

وتزين الغرف المعلقة الكفشكانات من الداخل مجموعة من الدخلات(الروازين) والخزانات الخشبية الصغيرة فائدتها:

١. تخفيف النقل علي الطابق الأرضي.
٢. إظهار الغرف بما يسر ويفرح من استخدام العقود والزخارف النباتية والهندسية أحيانا الحيوانية.
٣. اتخاذها خزانات لحفظ وعرض التحف والحاجيات.
٤. كانت هذه الغرف بمثابة عازل صوتي لفصل الغرف ومنع تسرب الصوت ووصوله الي الغرف المجاوره.
٥. القضاء علي الملل الذي يحدث بسبب النظر إلى السطوح الملساء.
٦. الاقتصاد في المواد الأولية المستخدمة في البناء.

هكذا تبين لنا من خلال هذا العرض البسيط مدي أهميته هذه الغرف كتكوين عماري يدخل ضمن السمات المميزة لعمارة البيت التراثي البغدادي.